المثلّث الاموي

الاخطل — الفرزدق — جرير

محاولة مختصرة في الموازنة بينهم

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

بينهم

الاخطل والفرزدق وجرير اشهر شعراء العصر الاموي ، بل افضل ممثلي الادب في ذاك العصر . عربيّو الاصل ، يمتون بالصلة المتينة الى قبائل لها تأثيرها وخطرها في المجتمع اذ ذاك . بدويّو النشأة ، عرفوا الحضارة الجديدة واتصلوا بها ، ولكن على تفاوت . فكان الاخطل اقربهم الى الاخذ بمرافقها ، ثم الفرزدق ، واخيراً جرير الذي ظلّ على اتصال متتابع بالبداوة . نرى اثر هذا في خلوص عاطفته ، وصدق ايمانه ، وصحة تقواه ، وهو يجاهر باسلامه ، ويدافع عنه ، ويحياه في شعره . حتى يتيم من العاطفة السدينية مادّة للفخر ، وعوناً على الهجاء ، فيهجو الفرزدق بعدم تديّنه وفساد عقيدته :

هو الرجس ، يا اهلَ المدينة ، فاحذروا مداخل رجس بالخبيثات عالم

ويهجو الاخطل بنصرانيته .

على ان هذه النصرانية لم تكن تمنع الاخطل من الاضطلاع بملاهي العصر وبمفاسده احياناً . فقد استعمل الطلاق ، واسترسل في الملذّات . الا انه ظلّ مذعناً لنواهي الدين ، خاضعاً لرجاله ، فلم يستهتر ، ولم يجاهر بالمروق عن الشرائع لا في شعره ولا في سلوكه ، كما قد نرى في حياة زميله الفرزدق . فان هذا كان سيّئ السلوك ، فاسد العلاقات ، مجاهراً باستهتاره ، مضطرب الاخلاق على الغالب ، يكاد لا يخلص لمبدأ ، الا في ما خصّ امامة العلويين .

شعرهم

فكان ، من حيث السياسة الحزبية ، شديد التعصب لآل البيت حتى يمكن اعتباره « شاعر العلويين » ، كما نعتبر الاخطل « شاعر الامويين » . وكما ان الفرزدق دافع بكل جرأة عن زين العابدين وآله في وجه هشام بن

عبد الملك ، كان الاخطل لا يتراجع عن الانتصار للامويين حتى في وجه الانصار. واذا فكل منها شاعر دين وشاعر سياسة ، على فرق ان الاخطل كان يتكلم عن حق الامويين بالامامة الدينية ، وهو لا يهتم من ذلك الا حكمهم السياسي. اما جرير فقد مدح الامويين مدحه خلفاء العصر ، وارباب الدولة ، كأنه تجاه امر واقع ، دون ان يهتم ، اهتمام الاخطل ، بتأييد حقهم او مناقشة اعدائهم . وقد مدح كذلك ولاتهم وامراءهم . فيكون الفن الاول : الذي يمكن ان نوازن فيه بين هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فن المدح.

وموضوع المدح المشترك بينهم واحد ، هو بنو امية . فاذا حددنا موقف كل منهم من الدولة المالكة نكون قد عملنا نوعاً ما على تحديد اخلاصه في العاطفة المدحية. **المدح**

اما الاخطل فهو «شاعر بني امية» بلا خلاف ، على قول الخليفة عبد الملك . لم يكن يدين بدينهم ، ولكنه جُذب الى حزبهم السياسي ، وقد يكون ذلك رهبةً منهم او رغبة في مالهم اول الامر . على ان ما يمكن تأكيده هو ان هذا الحزب السياسي الاموي اصبح جزءاً من عقائد الاخطل ، حتى انه كان يدافع عن الامويين كما يدافع عن قومه انفسهم ، ويهجو اعداءهم كما يهجو اعداءه الشخصيين . فاذا مدحهم ذكر كرمهم وشجاعتهم وسائر ما يتصل بذلك من اساليب المدح القديمة. ثم خص القسم الكبير من مدحه بالصفات التي عُرف بها الامويون كالحلم ، وقوة الارادة ، وحسن التدبير ، وضبط الامور :

شُمرُ المداورة حتى يستقاد لهم ، واعظم الناس احلاماً اذا قدروا

ولم يُغفل ان يتوسع في حقهم من الخلافة ، ملمحاً احياناً الى ضعف اعدائهم وعدم اهليتهم لادارة الملك ، ومصرحاً احياناً اخرى بافضلية أُميّة على كل من يدّعي الامامة ، غير تارك شيئاً من اساليب الفخر بالامويين ، والحط من مناوئيهم بالهجو اللاذع والتهكم المدام . حتى يظهر من هذه الناحية مُناضلاً سياسياً ذا اطلاع واسع على طرق المنافسات الحزبية ، فيتبوأ ، عن جدارة واستحقاق ، المركز الاول بين الشعراء السياسيين.

واما الفرزدق فاننا نظلمه اذا حكمنا على مدحه بقصائده في بني امية ، وهو ذو مذهب سياسي غير مذهبهم ، يرى الحق بالخلافة للعلويين ، ويرى ذلك عن اخلاص ، وحسن نيَّة ، وصحة مبدأ . وما كنا لنناقشه في اخلاصه ومبداه . ولكن هذا لا يمنعنا ان نتحقق انه كثيراً ما كتم هذا المبدأ ، فمدح من كان يعتبرهم خلفاء غير شرعيين . فكان في مدحه للامويين غير مخلص بالطبع ، يتكلف الامر تكلُّفاً ، فيبدو على شعره مسحة من الاضطراب والتفتيش عن المخارج . انما يجب علينا القول ، انصافاً لاخلاصه ، انه في مدحه هذا لم يتطرّق الى هجو اعداء الامويين ، ولم يبالغ في الاشادة بحق امية الشرعي ، كما فعل الاخطل . بل اكتفى غالباً بمدحهم ملوكاً ذوي حسب معروف ، وكرم فيّاض .

اما اذا دفعناه في طريق مبدأه فهناك العاطفة المخلصة تتجلى بالمدح الفخم ، فيتخلص الشاعر من كل تكلف الى مجال الطبيعية الحقّة ، واذا امامنا مدح زين العابدين :

يُغضي حياءً ويُغضى من مهابته ... فما يُكلَّم الا حين يبتسم .

يجمع فيه الفرزدق بين الصفات الخارجية والصفات الداخلية ، بين المدائح التقليدية بالكرم والشجاعة ، والمدائح الجديدة بحسن التديّن والتقوى والطهارة . فكأنه يقيم من ذلك مشهداً تاماً للمدح يقابل به المشهد التامّ الذي اقامه الاخطل في مدح بني اميَّة . وهنا نلاحظ اختلافاً في شيء من مواد هذين المدحين المخلصين : من ذلك ان الاخطل ، في اشادته بذكر مناقب الامويين الدينية ، لا يهتمّ بتقواهم ولا بطهارتهم ، اولاً لانهم لم يكونوا على شيء مهم من ذلك ؛ وثانياً لانه ، وهو الشاعر النصراني ، لم يكن يكترث كثيراً لهذه الصفات في خلفاء الاسلام . ومن ذلك ان الفرزدق ، في تعداده مناقب زين العابدين وآله وذكر حقهم من الخلافة ، لا يذكر حزمهم وحسن تدبيرهم وشدة ضبطهم للامور ، وهي من الصفات المهمّة في الحكم ومن التي افاض فيها الاخطل في ذكر ممدوحيه . ذلك ان العلويين لم يكونوا على شيء يذكر من ذلك . فاكتفى الفرزدق باستنتاج هذا الحقّ من نسب الممدوحين واتصالهم بالنبي :

هذا ابن فاطمة ، ان كنت جاهله !

وموقف الفرزدق هذا يبرّر اعراض الامويين عنه ، وعندهم الاخطل . فلم يبقَ له اذاً الّا ان يعتزل البلاط الملكي ، فيكثر الاختلاف الى مدن الحجاز حيث كانت اكثرية العلويين.

واننا لنتحقق الامر نفسه من اعتزال البلاط والانصراف عن دمشق في جرير . ولم يكن من نصيب هذا ان يحظى عند الخلفاء ، قبل عمر بن عبدالعزيز، اي قبل وفاة الاخطل . لا لانه لم يمدحهم ، بل لان الاخطل كان مستأثراً بهم دونه ، ولانه لم يناضل عنهم مناضلة الاخطل ، بل كان من المتهمين بالنعرة الزبيرية وبالتالي من المعرّضين لسخط بني امية . فكان اذا مدحهم ذكر الشجاعة ، والبطش ، والكرم خاصة ، واعتذر عن نزعته القديمة ، ثم لمّح تلميحاً عاماً الى صفاتهم الدينية ، دون ان يبرهن عن حقهم بالخلافة . ولم يكن من المنتظر ان شاعراً يسلك هذه الطرق المدحية وحدها ، ينافس الاخطل في مركزه . ولهذا نراه ينصرف الى مدح امراء الدولة وولاتها كالحجّاج بن يوسف . وهو في اكثر مدحه لا يتعدّى الاوصاف التقليدية . ولا يمكنه في اي حال ان يساوي الاخطل في مدحه الاموي ، او الفرزدق في مدحه العلوي.

الهجاء ولكنه ان انحطّ عن زميليه في المدح ، فانه كثيراً ما ساواهما ، وقليلاً ما فاقهما في الهجاء.

كان في طبيعته تيقّظ غريب للاطلاع على مساوئ الناس ، وانتباه عجيب لمواطن النقص فيهم ، ومقدرة على بسط هذه النواقص والمخازي ، يمدّها عدم التحرّج في اختراع ما لا وجود له منها . ويخدم كل ذلك عاطفةٌ قويّة ، ولغة سهلة ، ونفس سيّال ؛ فيؤلف امثل شخصية هجائية عرفها العصر الاموي . زد على ذلك ما كان يُذكي هذه الشخصية من ظروف العصر ، ادبيةً كانت ام سياسية ، واذا انت امام اجلى مظهر للهجو الادبي . وزيد بالهجو « الادبي » كونه احد الفنون الشعرية ، لا كونه مطابقاً لاصول « الادب » وقواعد الاخلاق. فان هذا الهجو « الادبي » كثيراً ما كان يخرج الى السباب والشتائم ، ولاسيما بين جرير والفرزدق ، فيولّد مادّة النقائض المهتة . وان من يطلع عليها يرى مثالاً لما

بلغ اليه انحطاط الاخلاق في هذين الشاعرين ، فاصبحا يتقاذفان اسفه التعابير واسفل المعاني ، ولا مبرّر لذلك الّا كونها منظومة شعرًا ، وشعرًا فنياً بعض الاحيان. حتى لم تبقَ اهانة لاحقة بالاصل او بالنسب او باسرة الشاعرين من اخوة واخوات وآباء واجداد او بسلوكهم جميعاً ، صحيحةً كانت ام مكذوبة ، الا وجدت محلًّا في تلك النقائض . فضلًا عن ان هذه الشتائم الكثيرة الالفاظ ، القليلة المعاني ، كانت تتراجع دائماً حتى الامثلال ، يزيدها فخر الشاعر بنفسه وبآبائه وبشعره وبكل ما يتصل به . يستعمل الفرزدق ذلك ، فيردّه عليه جرير ، ويبدأ به جرير ، فينقضه الفرزدق . حتى اصبح لنا مشهدان محدّدان ورسمان مقرّران يمثل الاول جريراً اشرف الناس والفرزدق اسفلهم ، ويمثل الثاني عكس هذا المشهد بالتمام . الا ان هنالك اختلافاً بالطريقة . فانّ من يدرس اهاجي الفرزدق يتمثل لديه رجل جبّار يحمل الصخرة العظيمة فيهوي بها على رأس خصمه ، حتى اذا خال نفسه قاضياً عليه ، واصبح المطالع منتظرًا هرس الخصم ، اذا بهذا يتسلل برقق ولباقة من تحت هذه الصخرة وينظر الى خصمه بخفّة واستهزاء ، فيتهكم التهكم المرّ ، ويحوّل عاطفة الحاضرين من الشفقة عليه الى الهزء معه من ذلك الخصم الجبّار :

زعم الفرزدق ان سيقتل مربعاً . أبشر بطول سلامة ، يا مربعُ !

فيكون فنّ جرير بالانتباه ، كما قلنا ، للامور الدقيقة واستغلالها على طريقة لطيفة من الهزء والتهكم . فيرضي الناس ، ويجذبهم اليه ، فيحفظون شعره ويتداولونه ، واذا جميعهم من حزبه .

ثم هو ، في كثير من الاحيان ، ينال بغيته على طريقة غير مباشرة كما في قوله :

لما وضعتُ على الفرزدق ميسمي ، وعلى البعيث ، جدعتُ انف الاخطل .

على انه لم يكن من السهل على جرير ان يجدع انف الاخطل ، وهو القائل عنه : « قد ادركته وله ناب واحد ، ولو كان له ناب آخر لاكلني به » يدلّ بهذا على ما كان للاخطل من ذكر بعيد واسم رفيع وشهرة واسعة في جميع انواع الشعر حتى الهجاء . ولعلّ من العوامل التي دفعت جريراً الى التحكك بالاخطل رغبة الشهرة وطمع التفوّق على اكبر شعراء ذاك العصر . الا ان السبب المباشر

كان ان الاخطل حكم على الشاعرين بقول ظنه جرير مجحفاً بحقه . فلم يرضَ بالحكم ، واستقلّ الامر على طريقته المعروفة من صرف الحادثة الى مجال التهكم والازدراء بالمهجوّ ، فقال :

يا ذا النباوة ، ان بشرًا قد قضى ان لا تجوز حكومةُ النشوان .

ثم اتصل الهجاء بينهما ، على اجتهاد من ناحية جرير ، وكسل من جهة الاخطل . فكأنه كان يتكلف الردّ من نفسه لا مهاجمة خصمه . حتى يمكن القول ان موقفه كان دفاعياً وموقف خصمه هجومياً . يتضح هذا لمن يطالع نقائض جرير والاخطل . ولعل في دين كل من الشاعرين ، ونسبة قبيلته الى الدولة المالكة ، ما كان يولّد هذا التباين . فان اسلام جرير كان يفسح له ، في هجاء خصمه النصراني ، مجالًا لا يراه هذا في تلك الدولة الاسلامية . وان مضريّة جرير كانت تسهّل له ، للنيل من اعراض تغلب بل ربيعة ، اساليب لا تسهل للاخطل في تلك الخلافة القرشية المضرية . وهذا ما انتبه له احد الشيبانيين فقال للاخطل : « ان جريرًا يبسط لسانه بما ينقبض عنه لسانك ، ويسبّ ربيعة سبًّا لا تقدر على سبّ مضر بمثله ، والملك فيهم والنبوّة قبله . » وهذا ما لاحظه ايضاً عمر بن عبد العزيز فقال : « ان الاخطل ضيّق عليه كفره القول ، وان جريرًا اوسع عليه اسلامه قوله . » بيد ان الاخطل بلغ ، مع ذلك ، من جرير مبلغاً بعيدًا . وكان ، على اخذه بالطرق المعروفة من الفخر بالنفس وشتم الخصم ، يترفع نوعاً عن البذاءات التي كان يصل اليها جرير . الا ان شعر هذا كان اسير بين العرب لما كان يتصف به من تلك النكات الدقيقة ، ولما كان يمدّه فيها من العاطفة ، وهي عنده اوفر منها عند زميله .

الرثاء

وهذه العاطفة هي التي جعلت من رثائه فنًّا شعرياً حقًّا سما به على رفيقيه بلا خلاف . حتى اننا اذا طالعنا اليوم رثاءه لامرأته ، على قلة اعتبار النساء في ذلك العصر ، نجد شاعرية فيّاضة بالعاطفة المخلصة والحسّ اللطيف والذكريات الغنيّة مما يكاد يفتخر به ارقّ شعراء العصر ؛ واننا لنعجب بذاك الاخلاص الذي دفعه الى الارتفاع فوق زمانه ، فقال :

لولا الحياء لعادني استبارُ ، ولزرت قبرك ، والحبيب يزارُ !

. ومن الكافي ان يكون جرير قد افتكر ، في ذلك العصر ، بزيارة قبر امرأته ، وعبّر عن هذه الفكرة بطريقة مخاصة ساذجة ، للدلالة على وصوله في الشعر الرثائي الى درجة لم يصل اليها الفرزدق الجافّ العاطفة ، ولا الاخطل الذي لم يكن الموت ليوفر له الموضوعات الجديرة بشعره الفخم .

الغزل وكثيرًا ما رغب الفرزدق في مثل عاطفة جرير ، لا للاجادة في الرثاء ، بل للرقة والتلطّف في الغزل . وغايته ان يستميل النساء اللواتي كنّ ينفرن من غزله الصلب وتشابيهه الضخمة المتراكمة كالصخور في موضوع يجدر بصاحبه ان يذوب فيه رقة ولطفاً . فضلاً عن ان الفرزدق كان اكثر حاجة الى الرقة من جرير ، لانه كان اوفر تعبيرًا واشد فسقاً ، على قوله ؛ ولما لم يكن يتوصّل الى ذلك كان يستعيض بوصف حوادث ومغامرات ترتفع عن الاشارة اليها . وقد استغلّ جرير هذه المواقف ، في هجائه الفرزدق ، فاقام الحجة عليه من شعره حتى نفاه والي المدينة .

اما غزل جرير ، فكان على رقة عاطفته ، اوفر عفّة ، واقلّ قذفاً بالمحصنات .

واما الاخطل فقد استعمل الغزل على طريقة الاقدمين دون ان يتعهّر ، ودون ان يرقّ . وكان كثيرًا ما يستعمل هذا النوع ، لا عن دافع خاصّ ، بل اسلوباً ادبياً يوطّئ به للمدح .

الخمر ولعله لم يكن ذا ميل الى هذا النوع من الشعر ، وقد ملكت عليه الخمرة عاطفته فحلّت في حياته محل دوافع الغزل ، فولدت في شعره بدائع جمة لا يمكن ان نوازن في موضوعها بينه وبين زميليه . ولا يخفى ان الشعر الخمري فنّ احياه الاخطل ، بعد ان كاد الاسلام يقضي على خمريات الاعشى وعدي ابن زيد : فوصف الخمرة في كثير من انواعها وصفاتها ، ووصف مفاعيلها في نفسه ، وفي غيره من الشاربين . كل ذلك باخلاص وطبعية ودقة تمهد السبيل لوصف ابي نواس . ولو كان الاخطل قد افرد قصائد خاصة لهذا النوع لكان « شاعر الخمرة » قبل ابي نواس . على انه يجب الا ننسى تأثير البيئة في ذلك . فبينما نرى الاخطل يكتفي بالشرب حتى يسكر ، وقد يشرب مستعجلاً ، وقد يشرب واقفاً ، نرى ابا نواس يتمهّل في تروّ مجلس

الخمر بما يتطلبه من ماء وازهار وفاكهة وغناء . فلا يصل الى النتيجة نفسها ، اي السكر ، الا بعد ان يكون قد استوفى ملاهي ومسرّات وفّرتها الحضارة العباسية ولم يكن ليجرؤ عليها شاعر نصراني في بلاط الامويين.

الفخر الاسلامي

الا ان هذا لم يمنع الاخطل ان يفتخر بالشرب ، حتى في المحيط الاسلامي، فيقول :

ولكني ساشربها شمولا واسجد عند منبلج الصباح.

واذًا فقد كانت الخمرة موضوعاً من موضوعات فخره، كما كانت لعمرو بن كلثوم ، ولعنترة ومن اليهما من الجاهليين.

ولقد افتخر الاخطل بغير الخمرة . فتناول موضوعات اشترك فيها وزميليه من شرف الاصل ، ونبل الحسب ، وفضل القبيلة ، وسيادتها القديمة . وكان يدلّ احياناً بخدمات قومه في سبيل الامويين. والفخر موضوع واسع كان يتنافس فيه وجريرًا والفرزدق ، فيتنازعون الاسبقية . ومن الصعب ان نشير الى اولهم في ذلك . وان كان لا بدّ من ذكر اكثرهم فخراً في الكمية ، ان لم يكن في الكيفية ، فاننا نميل بالارجح الى الفرزدق .

الوصف

وهناك موضوع آخر مشترك بين الثلاثة ، وهو الوصف . . . ولكن لم ينبغ فيه احد منهم نبوغاً يستحقّ ذكرًا خاصاً ، وان خاض فيه جميعهم فنجحوا بعض النجاح ، ولاسيما الاخطل. والسبب في ذلك ان فنّ الوصف لم يكن على تقدّم وازدهار في عصرهم .

***

صباغتهم

قال الاخطل عن الفرزدق :

ان الفرزدق صخرةٌ عاديّةٌ طالت ، فليس تنالها الاوعالُ.

قد يكون في هذا البيت تلميح الى جرير ، ورغبة في الحطّ من شأنه. على ان ما يهمنا الآن هو رأي الاخطل في الفرزدق . فنرى انه لم يهتمّ في شعر زميله الا بمظهر العظمة والسموّ. فهو يأخذ بما في ذاك الشعر من تماسك الاجزاء، وشدة الضبط ، وبروز المتانة ، فيشبّهه بالصخرة العادية اي القديمة الثابتة على كرّ الايام . ونحن اذا تذكّرنا ما يروى عن الاخطل من حكم على الفرزدق

وجرير : «الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر» نرى ان الشاعر الحاكم لم يغيّر وجهة نظره . وهو على حقّ في ذلك . فان كان لقصائد الفرزدق ما يضمن لها البقاء ، فهو تلك الجزالة الرائعة التي تأخذ من قلب السامع ، او المطالع ، بجمال خاصّ يستند الى عناصر الكثرة والقوة وضخامة القسمات، حتى ان الانسان يكاد يذى،وهو في تلك الحالة من الاعجاب ، دقائق الفنّ الضرورية ، وشروط التعبير الصحيح ، ولزوم السير على الاسلوب العادي . وكلها قواعد للصناعة لم يكن الفرزدق ليهتمّ بها دائماً ، لسوء الحظ . وقد انتبه اكثر النحاة لهذا الاهمال فتعرا على الشاعر هفواته العديدة . وكان يسرّ بعضهم ان الفرزدق ، في اهماله هذا ، يوفّر لهم اسباب المشاحنة والتمحّل . على ان هذا الاضطراب في التعبير لم يكن عن جهل بالاساليب الصحيحة ، بل عن نفور فطري من طرق التهذيب والتنقيح . واذاً فيكون الفرزدق ، اذا اعتبرنا مجمل شاعريته، شاعراً عبقرياً لا يخضع الا لالهامه ، وليس له من الجلد ما يدفعه الى تثقيف هذه العبقرية . فهو ان اتاه الالهام ، نظم القصيدة الطويلة الرائعة بجمالها ، وان لم يلبّه شيطانه كان «قلع ضرسه اهون عليه من نظم البيت الواحد.»

نقول هذا في الشعر الذي كان ينظمه طبيعياً ، والذي كان يقرن فيه قوة النفس باخلاص العاطفة ، فتندفع الكلمات اندفاع السيل ، وتتراكم التعابير يأخذ منها ما يشاء وما لا يشاء ، كما نجد في قصيدته الميمية في مدح زين العابدين . وكان ، في قوة اندفاعه يستعمل كثيراً من المفردات المهجورة والتعابير القديمة ، وان جافة صعبة ، حتى سُرّ به ارباب اللغة فقال يونس :« لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب .» الا ان هذا الجفاف لم يكن ليخفى عليه ، وكثيراً ما تمنى ان يتجنبه وان يكون له رقة جرير ، وكثيراً ما اراد ان ينقّح شعره ، وان يأخذ الجميل عن غيره . ولكنه لم يكن يفعل ذلك عن ثقافة مقرّرة ولا عن اسلوب مطّرد ، فظلّ شعره متفاوت الابيات : منها السخيف ، ومنها الرائع العالي يسير بين الناس سير المثل فيتداولونه تداولهم قطع النقود المصكوكة ، وهو لا يزداد على التداول الا جلاء ، كقوله :

ترى الناس ، ما سرنا ، يسيرون خلفنا؛ وان نحن اومأنا الى الناس وقّفوا.

او قوله :

ترى كلَّ مظلوم الينا فراره ويهرب منا جهده كلُّ ظالم.

او قوله ايضاً :

وكنّا اذا الجبار صعّر خدّه ، ضربناه حتى تستقيم الاخادع.

ولا حاجة الى تبيان ما في هذا الشعر من القوة والعظمة ، وهو مما لمحه الاخطل خاصة في حكمه . ولم يكن الاخطل ليلمح هذه الصفة خاصة ، لو لم يكن في نفسه ميل الى القوة والمتانة . وهو ما نتحققه في شعره.

فممّا لا جدال فيه ان الجزالة وطول النفَس من صفات شعر الاخطل . وان كان هذا الشعر يقلّ قوة في بعض مفرداته عن شعر الفرزدق ، فانه يفوقه سلامةً وحسن سبك على طول قصائده . لان الاهمال الذي قصّر بالفرزدق في تنقيح شعره لم يؤثر في الاخطل . بل بالضد ، فان المؤرخين يؤكدون ان الاخطل كان يشتغل شعره ، وينقّحه ، ويحسّن فيه ، حتى انهم يقولون: « كان اذا اجتمع له ثمون بيتاً اختار منها ثلاثين ».وهو يقول انه اقام في نظم « خفّ القطين » سنة كاملة . ومهما يكن من ذلك فان هذا التنقيح افاد شعر الاخطل دقة تعبير ، وصحة تركيب ، واستمراراً على المتانة في القصيدة كلها مهما كانت طويلة . ولهذا اجمع ارباب اللغة واساد النحو على تقديم الاخطل على زميليه . فضلاً عن ان هذا التحسين اللازم وفّر للاخطل تلك المطالع الجميلة التي تظهر في شعره اكثر منها في شعر الآخرين . ثم كان له سعة اطلاع على شعر القدماء ورغبة خاصة في شعر النابغة ، والنابغة من «عبيد الشعر» ، فاخذ بهذا الاسلوب، وسار على خطة سابقه في مدح الملوك،وفي تنقيح الشعر.وقد جمع الى هذه المقدرة في التعبير قوة في التصوير يزّ بها زميليه . فترك لنا تلك المسارح الفسيحة تلعب فيها حمر الوحش ، وتلك الاستدارات التشبيهية تظهر بها سعة الموصوفات . وهنا ايضاً يجب القول انه مدين بقسم من ذلك لاستاذه النابغة.

واذا جاز لنا ان نقايس بين القوى الشعرية التي امتاز بها كل من شعراء المثلث الاموي فاننا نقول ان اضعفها عند الفرزدق والاخطل ، الشعور . اما اقواها عند الاخطل فالمخيّلة يهيمن عليها العقل . واما الفرزدق فكانت قواه تسير على غير

ضبط . فتارة يسيطر العقل في مدائحه الاصطناعية ، وطوراً تتقدم المخيلة في وصف مناسباته ، وحيناً يظهر الشعور في قصائده العاطفية ، وهي قليلة جداً .

اما اقرب الثلاثة الى الشعور فهو جرير . وهبته الطبيعة عاطفة رقيقة ووفرت له من الاحوال ما زادها نمواً ورقة فاستعملها في كل شيء . في الدين : فكان مؤمناً مخلصاً ؛ وفي الحب : فكان زوجاً وفياً ، وكان والداً باراً ؛ وفي المديح : فكان شاعراً مسلماً ؛ وفي الهجاء : فكان جرّاحاً مؤلماً — وهذا نتيجة ما كان يشعر به من الالم اذ يشتمه الناس — وفي الفخر : فكان متحمساً حتى التهور .

وكأنه سكب من عاطفته شيئاً على مبناه . فكان اسلوبه سهلاً لطيفاً جذاباً يتجنب فيه الالفاظ الثقيلة والتعابير الجافية ، حتى سار شعره بين الناس بسهولة عجيبة . ولا يسير شعر بين الناس ، على الغالب ، الا اذا اتاهم عن طريق القلب . ولا يخفى ان الاسلوب صورة العاطفة اذا رقت رقّ ، واذا جفت جفا .

هذا في الشعر الفطري ، اي غير المصطنع ، وقد كان جرير في اكثر شعره فطرياً مطبوعاً حتى نُسب الى الاخطل قوله : « وجرير يغرف من بحر » اراد بالبحر تلك السهولة التي اتصف بها الشاعر ، وذاك الفيض الذي كان يمده كمن بحر واسع . الا ان هذه السهولة كانت تضعف ، وتُضعف الشعر ، كلما طالت القصيدة ، فتسفّ الابيات ، ويضطرب التعبير مقترباً من الركاكة . وكأنّ الفرزدق صوّر هذه الميزة في شعر مناظره على احسن صورة ، اذ قال : « وتضطرب دلاؤه عند طول النهر . »

وقد كان هذا الامر من الاسباب التي دفعت جريراً الى تقصير قصائده والاكتفاء بالمقاطع القليلة تسير بين العرب بسرعة البرق ، حتى غدا جرير عندهم اشعر الناس في الفخر ، والمديح ، والهجاء ، والغزل . ونحن اذا تدبّرنا اسباب هذا التفضيل نراها تعود الى السهولة في الفكرة ، والسلاسة في التعبير ، والبساطة في عرض الاقسام . وهي الصفات التي كان يعجب بها البدو ، لانها اوفق لفطرتهم ، واقرب لمثلهم الاعلى . وعليه فيكون جرير شاعر البدو ، والاخطل شاعر الحضر ، والفرزدق يهيم بعبقريته بين البيتين .